تجليات الحضور النسائي في التصوف المغربي:
دراسة في الأبعاد الروحية والاجتماعية

د. محمد بوزيان
دكتوراه في الفكر الصوفي، جامعة السلطان مولاي سليمان ببني ملال
المملكة المغربية

الملخص:

يتناول هذا البحث تجليات حضور المرأة في التصوف المغربي، محاولا الكشف عن المفارقة القائمة بين فاعليتها الواقعية الكبيرة ومحدودية تمثيلها في المتون المناقبية والتاريخية، ويبين البحث أن الفكر الصوفي، لا سيما في مترعه الفلسفي (كابن عربي)، قد أقر بمبدأ المساواة الروحية، مجيزا إمكانية وصول المرأة إلى أسمى المقامات مثل "القطبية"، كما يتتبع البحث التطور التاريخي لهذا الحضور الذي شهد طفرة نوعية في العصر الموحدي وما تلاه؛ حيث ظهرت نماذج لوليات وعالمات ذوات نفوذ روحي متمكن وسلطة رمزية مؤثرة، تجاوز أثرهن حدود التعبد الفردي إلى الريادة المجتمعية.

ويرصد البحث مظاهر فاعلية المرأة الصوفية في بعدين متكاملين: روحي تمثل في التربية والإرشاد والقدوة، واجتماعي رائد تجلى في الوساطات القبلية، وإخماد الفتن، وكفالة الفقراء، وبناء الزوايا الخاص، ويخلص البحث إلى أن التصوف كان من أكثر الحقول الدينية إنصافا للمرأة، داعيا إلى إعادة قراءة التراث الصوفي لإنصاف إسهاماتها في تشكيل التدين المغربي.

الكلمات المفتاحية: التصوف المغربي، الولاية النسائية، المساواة الروحية، تصوف النساء، المرأة المغربية.

© المؤلفون. مرخّص بموجب (CC BY-NC 4.0) Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

مقدمة:

شهد التصوف الإسلامي عموما، والتصوف المغربي على وجه الخصوص، حضورا مهما للمرأة، تجلى في أدوار متعددة تراوحت بين التربية الروحية، والإسهام في البناء الاجتماعي، والمشاركة في توجيه الحياة الدينية، غير أنّ هذا الحضور ظل محكوما بمفارقة واضحة؛ إذ يقابله على مستوى التدوين التاريخي والنصوص المناقبية، نوع من التهميش أو الاختزال، ما يطرح إشكال العلاقة بين الفاعلية الواقعية للمرأة الصوفية ومحدودية تمثيلها النصي، ومن ثم، فإن دراسة تجليات الحضور النسائي في التصوف المغربي تندرج ضمن محاولة إعادة قراءة هذا التراث، والكشف عن أبعاده الروحية والاجتماعية التي أسهمت في تشكيل ملامح التدين المغربي.

الإشكالية:

تتمحور إشكالية هذا البحث حول رصد مكامن الحضور النسائي في التجربة الصوفية المغربية، وبحث مدى قدرة المرأة على إثبات فاعليتها الروحية، بالرغم من شح المادة المصدرية وهيمنة المقاربة الذكورية على كتب التراجم والمناقب، كما يسعى البحث إلى تفكيك بنية الأدوار الوظيفية التي تقلدتها المرأة، سواء في أبعادها التعبدية الصرفة أو في أدوارها السوسيو–تربوية داخل المجتمع.

وتتفرع عن هذه الإشكالية أسئلة فرعية من قبيل: ما موقع المرأة في التصور الصوفي نظريا؟ وكيف تطور حضورها تاريخيا في المغرب؟ وما أبرز مظاهر فاعليتها في الواقع الروحي والاجتماعي؟

أهداف البحث:

يهدف هذا البحث إلى تحقيق جملة من الأهداف، من أبرزها:

- بيان مكانة المرأة في الفكر الصوفي الإسلامي، ورصد تطور حضورها في التجربة الصوفية المغربية عبر مختلف الحقب التاريخية.
- الكشف عن مظاهر فاعليتها الروحية والاجتماعية، بما يسهم في تصحيح الصورة النمطية التي حصرت دورها في الهامش.
- إعادة الاعتبار لإسهاماتها في المجال الديني.

المنهج المتبع:

لتحقيق أهداف البحث اعتُمد المنهج التاريخي لتتبع تطور حضور المرأة الصوفية عبر الزمن، والمنهج الوصفي التحليلي لرصد مظاهر هذا الحضور وتحليل أبعاده، إلى جانب الاستئناس بـــالمنهج النقدي في قراءة النصوص المناقبية واستنطاق ما تحمله من تمثلات حول المرأة.

المحور الأول: المرأة في الفكر الصوفي الإسلامي: المكانة والرؤية

في البداية نشير إلى أن المرأة احتلت في الفكر الصوفي داخل العالم الإسلامي عامة وفي المغرب خاصة مكانة متميزة، يعبر عنها الاحترام الذي حظيت به صوفيات شهيرات مثل: رابعة العدوية التي تعد بحق الشخصية المؤسسة للتصوف ولصلاح النساء بعشقها الإلهي وتجربتها الصوفية العميقة، ومأثوراتها البالغة المعنى والتأثير في تاريخ التصوف عامة والتصوف النسائي خاصة. [1]

[1] رحال بوبريك، بركة النساء، الدين بصيغة المؤنث، منشورات إفريقيا الشرق، 2010، ص 98.

© المؤلفون. مرخّص بموجب (CC BY-NC 4.0) Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

ويعود هذا في اعتقاد بعض الباحثين [1] إلى أن التصوف كان أكثر تعبيرا عن المساواة بين المرأة والرجل في ولوج عالمه وظهور علامات الصلاح والوصول إلى أعلى مقامات التصوف، رغم أن رتبة القطبية التي تعد من أعلى المقامات في التراتبية الصوفية بقيت حكرا على الرجال دون النساء. وهذا لا يعني أن الصوفية يرون أن المرأة لا يمكنها الوصول إلى هذا المقام، لكن المقصود أن التاريخ لم يذكر لنا نساء نلن هذا اللقب، أما عن إمكانية نيله فالصوفية يرون أنه لا مانع من ذلك خصوصا صوفية الاتجاه الفلسفي الذين يبدو أنهم كانوا أكثر إنصافا للمرأة، من أهل التصوف السني، ولعل السبب في ذلك أن أرباب التصوف السني كانوا دائما متأثرين بالفقهاء، بخلاف أهل التصوف الفلسفي الذين لم يكن للخطاب الفقهي عندهم حضور وازن، بل كانوا يصطدمون –في الغالب –معهم.

فهذا محيي الدين ابن عربي يرى أن المرأة يمكن أن تصل إلى القطبية، يقول: "وهذه كلها أحوال يشترك فيها النساء والرجال، ويشتركان جميع المراتب حتى القطبية".[2] ويقول: "كل ما يصح أن يناله الرجل من المقامات والمراتب والصفات يمكن أن يكون لمن شاء الله من النساء، كما كان لمن شاء الله من الرجال".[3] وكأن ابن عربي كان يتوقع أن يرد عليه خصومه في هذا الباب بحديث النبي صلى الله عليه وسلم حول تولية النساء فقال: "ولا يحجبك قول الرسول صلى الله عليه وسلم: "لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة"[4] فنحن نتكلم عن تولية الله، لا تولية الناس، والحديث جاء فيمن ولاه الناس".[5]

ولعل من أسباب المساواة بين الجنسين في الولاية، أن إزالة الحواجز من طريق المرأة للولوج إلى العالم الصوفي، ينسجم تماما مع البعد التوحيدي للتصوف في فتح "طريق الله" أمام السالكين. فتمت المساواة بموجب هذا البعد بين مختلف الأعراق والأجناس والمستويات الاجتماعية والمعرفية. [6]

لكن، وعلى الرغم من هذا كله "فإن حضور المرأة الولية الصالحة في المتون الصوفية، والقصد أساسا المتون المناقبية لم يرق إلى الحيز المخصص للرجال". [7]

وبالرغم من المكانة الراقية للمرأة في التصوف على مستوى التنظير، إلا أن النصوص حول تصوف المرأة المغربية قليلة جدا، فحين نبحث عن أثر النساء في النصوص وحتى الشهيرة منها لا نكاد نعثر إلا على عدد قليل منهن؛ ففي كتاب التشوف إلى رجال التصوف الذي يعد أقدم وأهم نص لتراجم الأولياء في القرن الهجري السادس بالمغرب "لا يذكر سوى ثماني نساء، منهن ثلاث غير معروفات وذكر منهن بالاسم خمسا فقط، وهذا العدد ضعيف جدا مقارنة مع العدد الإجمالي لتراجم الكتاب التي بلغت 277 ترجمة". [8]

---

[1] محمد المغراوي، تصوف المرأة في العصر الموحدي، مجلة البحث التاريخي، ع2، 2004، ص 8.

[2] ابن عربي، الفتوحات المكية، م، س، ج3، ص89.

[3] ابن عربي، الفتوحات المكية، م، س، ج 3، ص 90.

[4] نص الحديث عن أبي بكرة أنه قال:" لما بلغ النبي صلى الله عليه وسلم أن فارسا ملكوا ابنة كسرى قال: لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة". رواه البخاري في صحيحه، رقم الحديث 4425. ورواه النسائي في السنن 227/8.

[5] ابن عربي، الفتوحات المكية، م، س، ج3، ص 89.

[6]6 محمد المغراوي، تصوف المرأة في العصر الموحدي، م، س، ص 8.

[7] لطيفة شراس، حضور المرأة في الحقل الصوفي المغربي: مظاهره وصوره، ضمن: التصوف والمجال والإنسان: أعمال مهداة إلى الأستاذ عبد اللطيف الشاذلي، منشورات الجمعية المغربية للبحث التاريخي 2016، ص 90.

[8] لطيفة شراس، حضور المرأة في الحقل الصوفي المغربي: مظاهره وصوره، م، س، ص 91.

© المؤلفون. مرخّص بموجب (CC BY-NC 4.0) Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

و"إذا تجاوزنا مسألة العدد، وركزنا على كيفية تناول مدوني كتب المناقب للنساء الصوفيات نسجل شحهم في تقديم المعلومات حولهن واختزالهم الكبير لها، مقارنة مع المعلومات المخصصة للرجال، إذ لا يتعدى المؤلف في أغلب الأحيان إلى جانب اسمها مكان وتاريخ الوفاة، وإذا جاد فإنه يضيف شيخها المعتمد في سلوك طريق القوم". [1]

كما أن عددا كبيرا من تراجم النساء الصالحات ارتبطت واقترنت بذكر أحد أقاربها الصلحاء الرجال. إما الزوج، أو الأب، أو الابن، أو الأخ أحيانا. "وتندرج هذه المسألة في رغبة مؤلفي سير هؤلاء الصلحاء الذكور على إثبات صلاح وعفاف المحيط العائلي الذي تربى فيه."[2]

المحور الثاني: التطور التاريخي لحضور المرأة في التصوف المغربي

لعل أقدم الإشارات الدالة على ظاهرة الزهد والتصوف النسائي بالمغرب تعود إلى أواخر القرن (5هـ / 11م) حيث انفرد ابن الزيات بذكر إقبال سكان أغمات وريكة على زيارة قبر إحدى الصالحات للتبرك به والدعاء عنده. [3] ويتعلق الأمر بأخت العالم التونسي التي قدمت من القيروان مع أخويها في أواخر القرن (5هـ/ 11م) وسكنوا مدينة أغمات، وقد تفرغت هذه الصالحة للعبادة طيلة عمرها فلم تتزوج، كما جاء في التشوف. [4]

غير أن ظاهرة تصوف النساء ستشهد انتعاشا قويا في عصر الموحدين، انسجاما مع نضج وازدهار الحركة الصوفية بالمغرب بشكل عام، كما أكدت كل الدراسات المنجزة في هذا الموضوع. [5] فأصبح تصوف المرأة ذا ثقل ووزن معتبرين في المجتمع المغربي، اعتمادا على ما نقله ابن الزيات عن الصالحة منية بنت ميمون الدكالي (ت 595هـ / 1198م) التي قالت حول حضور النساء بموسم رباط شاكر في إحدى السنوات: "حضر هذا العام برباط شاكر ألف امرأة من الأولياء". [6] مما يؤكد أن مشاركة المرأة القوية والنوعية في هذا الموسم الديني السنوي تعكس حركية صوفية نشيطة في أوساط نساء المصامدة، ونساء الجنوب بصفة عامة؛ لأن موسم رباط شاكر هذا كان يستقطب الزوار من مناطق تتجاوز المجال المصمودي.

و لم يقتصر حضور النساء بهذا المجال المصمودي فقط، بل شمل كل القبائل التي شكلت محور كتاب التشوف مثل قبائل تادلا ودكالة، حيث تم ذكر عدة نساء بلغن درجة الولاية مثل "منية بنت ميمون الدكالي" و "أم عصفور تيعزات بنت حسين الهنتيفي" و"الصالحة ملوكة" التي تعد عمدة ابن الزيات في نقل أخبار صالحي بلدها تادلا. ونقل عنها أنها كوشفت بانتصار المسلمين في معركة الأرك.

سجل العصر المريني أيضا حضور نساء صوفيات ذوات نفوذ روحي واجتماعي قويين، يكفي أن نذكر نموذج الشيخة الصالحة "عزيزة السكسيوية" دفينة إيمنتانوت، التي ذكر عنها ابن قنفذ القسنطيني، أنه كان لها أتباع ومريدون من النساء ومن

---

(1) نفسه، ص 92.

(2) لطيفة شراس، تاريخ التصوف بمنطقة تادلا مقاربة وظيفية، م، س، ص 55.

(3) ابن الزيات، التشوف، م، س، ص 94.

(4) نفسه، ص 112.

(5) مثل، محمد المغراوي، تصوف المرأة في عهد الموحدين، م، س.

(6) ابن الزيات، التشوف، م، س، ص 163.

© المؤلفون. مرخّص بموجب (CC BY-NC 4.0) Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

الرجال أيضا، كما كانت ذات كلمة قوية ومسموعة في وسطها القبلي، حيث نجحت في العديد من الوساطات قصد الصلح بين القبائل المتنازعة.[1]

أما خلال القرنين (10و11 هـ/ 16 و17م)، فقد أكدت إحدى الدراسات المهمة التي تناولت الحركة الصوفية خلال هذه الفترة التاريخية على قوة حضور المرأة المغربية في الحياة الصوفية. [2] بل إن هذا العهد تميز باحتواء عدد كبير من الزوايا المغربية على جناح خاص بالنساء يتدربن فيه على مقامات الطريق الصوفي، على غرار ما يقوم به الرجال في الجناح الخاص بهم، والأكثر من ذلك، فإن العديد من اللواتي وصلن إلى درجة الولاية الصوفية، أتيحت لهن بدورهن فرصة بناء زوايا خاصة بهن – وهي سابقة تاريخية –كما هو شأن الصالحة "عائشة بنت أحمد الإدريسية" (ت 979هـ / 1572م) والدة محمد بن عسكر، صاحب دوحة الناشر التي كانت لها زاوية بشفشاون.[3] أو شأن الصالحة السيدة "زهراء بنت عبد الله الكوش" (ت 1020هـ / 1612م) التي اشتهرت زاويتها بمراكش.[4]

من ضمن هؤلاء النسوة من كانت تنتمي إلى بيوتات اشتهرت بصلاحها وتصوفها وبقوة نفوذ زواياها الروحية والاجتماعية والسياسية أحيانا، مثل "الست ريسون" التي تنتمي إلى الزاوية الريسونية بجبل العلم في بلاد غمارة بشمال المغرب.[5] أو السيدة الصالحة "زبيدة" زوجة سيدي محمد الزعري جد سيدي محمد بوعبيد الشرقي، والسيدة "رحمة بنت حمزة بن يعيش" زوجة سيدي محمد الشرقي صاحب الزاوية الشرقاوية بأبي الجعد، فقد وصفت المصادر "السيدة زبيدة"؛ بأنها كانت امرأة صالحة معينة لزوجها على دينه.[6] أما السيدة " لالة رحمة" بنت حمزة بن يعيش، زوجة سيدي امحمد الشرقي، فقد قال عنها صاحب المرقي: "كانت رضي الله عنها من الصالحات، ظهرت عليها أمارة من الخير والفلاح، وكانت تذهب مع زوجها سيدي أبي القاسم لزيارة الشيخ سيدي أبي عثمان {أمسناو} وتتلمذت عليه وكانت تكثر من زيارته".[7] واشتهرت بخدمتها لكل أولياء الله الصالحين، ماتزال قبة هذه الصالحة قائمة على قبرها على الضفة اليمنى لنهر أم الربيع.[8]

وبمنطقة تادلا كذلك تذكر المصادر السيدة "عائشة بنت أبي بكر الدلائي" وصفت أيضا بالصلاح والولاية، ذكرها صاحب "نزهة الأخيار المرضيين" بقوله: " السيدة عائشة بنت أبي بكر المرواني من الصوفيين، ينتسبون لبني أمية من ذرية مروان بن محمد آخر ملوكهم بالشام (...)كانت امرأة صالحة ذات حسب ودين فتزوجها (أبوبكر الدلائي) فولدت له الشيخ سيدي محمد الحاج". [9]

---

(1) ابن قنفد القسنطيني، أنس الفقير وعز الحقير، م، س، ص 131.

(2) أحمد الوارث، الأولياء ودورهم الاجتماعي والسياسي خلال القرن 16م، م، س، ص 229-230.

(3) محمد بن عسكر الشفشاوني، دوحة الناشر، م، س، ص 30.

(4) محمد المهدي الفاسي، ممتع الأسماع، م، س، ص 120.

(5) أحمد الوارث، الأولياء ودورهم الاجتماعي والسياسي، م، س، ص 242.

(6) يتيمة العقود الوسطى في مناقب الشيخ أبي عبد الله محمد المعطى، تقديم وتحقيق، د. رشيد بنعجيبة، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، 1440هـ/ 2020م. ص 83.

(7) عبد الخالق العروسي الشرقاوي، المُرقي في بعض مناقب القطب سيدي محمد الشرقي، تحقيق محمد الشرقاوي بن العربي، مركز الإمام الجنيد للدراسات والبحوث الصوفية المتخصصة، ضمن سلسلة مأثورات السلوك، ص 76.

(8) لطيفة شراس، تاريخ التصوف بمنطقة تادلا مقاربة وظيفية، م، س، ص 56.

(9) عبد الودود التازي (ت 1247هـ) نزهة الأخيار المرضيين في مناقب العلماء الدلائيين، دار الأمان الرباط،2015م ص 40.

© المؤلفون. مرخّص بموجب (CC BY-NC 4.0) Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

ومن النماذج الشهيرة الصالحة "فاطمة بنت محمد" المشهورة بلالة "فاطمة تاعلاّت" (ت 1207 هـ) من بني عْلاَّ الهلالية، رابعة زمانها، كانت، عالمة عجيبة الحال، من الصالحات القانتات الصابرات الخاشعات، الذاكرات لله كثيرا، العابدات، قد انتشر صيتها وعم بلاد السوس والغرب، وأثنى عليها الناس وفشا ذكرها بالولاية والصلاح عند الخاصة والعامة في جميع الناس. [1]

عرفت هذه الولية- رحمها الله تعالى- بالصلاح والتقوى، حتى اشتهرت برابعة زمانها، وأُثرت عنها كرامات كثيرة، شهد لها بذلك كله أكابر العلماء العاملين، وأهل الخير والمحبة والدين، من ذلك "أن الشيخ العالم، الخاشع الناسك، الغارق في محبة النبي صلى الله عليه وسلم سيدي محمد بن الصالح، الملقب بالمعطى البجعدي كتب إليها يسلم عليها ويطلب منها الدعاء، وناهيك من يخص مثل هذا الرجل الكبير بالسلام ويطلب منه الدعاء". [2] ويقام إزاء ضريحها [3] موسم ديني حافل، أسس عام (1255هـ) أسسه الحاج أحمد إكني الحاحي الذي نزل بتارودانت وتِدسي، وأثر أطلال داره باقية بتِدسي، وقد كان هذا الموسم زاخرا بتلاوة كتاب الله عز وجل، ومليئا بالطلبة يأتون إليه من كل فج عميق، ويعكفون على قراءة القرآن ليل نهار، وما زال إلى يومنا هذا. [4]

ومن النماذج النسائية كذلك السيدة "رقية بنت محمد الحاجية" والدة الشيخ عبد الله الخليفتي شيخ زاوية أيت خليفت، ذكرها مؤلف "الدرة الجليلة" في حديثه عن تلامذة الشيخ أحمد الخليفة الناصري، وقال عنها: "وهي الفاضلة الناسكة العابدة الطائعة لله تعالى (...) مسلمة مؤمنة قانتة (...) ذاكرة لله كثيرا، اجتهدت كل الاجتهاد في إقامة صلاتها وصيام ما أمر الله بصيامه، ملازمة لأورادها، ملازمة للخلوة في جل أوقاتها، وغلب عليها الخمول، [5] ولا تخالط الناس، بل تجلس وحدها (...) تتلمذت على الشيخ أبي العباس بن ناصر بواسطة ولي الله سيدي محمد بن عبد العزيز البوعثماني. [6]

---

[1] محمد بن أحمد الحضيكي، طبقات الحضيكي، تحقيق: أحمد بومزكو، دار النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط1، 1427هـ-2006م، ج2، ص 592.

[2] نفسه، ج2، ص 593.

[3] يوجد ضريحها بدوار تعلّات، جماعة تسكدلت، إقليم شتوكة ايت باها، يبعد عن أكادير بحوالي 60 كلم. والموسم مازال يقام سنويا لحد الآن، كما ذكر الأستاذ حسن العبادي، يحضره طلبة المدارس العتيقة، وحملة كتاب الله عموما، يتلون القرآن والأذكار مدة ثلاثة أيام، ويختم بالدعاء للولية الصالحة، ولأمير المومنين، ومن حضر يلتمس الدعاء. ينقسم الموسم إلى فترتين، فترة خاصة بالرجال، وغالبا ما يعقد في الأسبوع الثاني من شهر مارس من كل سنة، وفترة خاصة بالنساء، في الأسبوع الذي يليه.

[4] حسن العبادي، الصالحات المتبرك بهن في سوس، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، ط 1: 1425هـ-2004م، ص 58-59.

[5] الخمول عند الصوفية هو مقام تربوي وروحي، يدل على إخفاء الحال وعدم محبة الظهور، ويُعدّه الصوفية نعمة عظيمة تحفظ السالك من آفات النفس والرياء، وينصح به الصوفية السالك في بدايته خوفا عليه من الغرور والرياء، فإذا رسخ يقينه لم تضره الشهرة؛ لذلك قال ابن عطاء الله في حكمه: "ادفن وجودك في أرض الخمول، فما نبت مما لم يُدفن لا يتم نتاجه." بمعنى إذا تم النتاج وقوي لا بأس بظهوره. وقال الإمام السراج الطوسي:"الخمول ألا يكون للعبد ذكر بين الناس، وهو سرّ بين العبد وربه، لا يُظهره ولا يتظاهر به، وهو من علامات الصدق والإخلاص." الطوسي، اللمع، م، س، ص 280. وقال الشيخ عبد القادر الجيلاني: " الخمول رأس مال المريد، فإذا اشتهر خيف عليه، فالخمول نعمة يُخفي الله بها أولياءه." انظر: الفتوحات الربانية في الأوراد القادرية، جمع حياة الفقيه الجيلاني، ط دار الوابل الصيب، القاهرة، 2019م، ص 48.

[6] امحمد الخليفتي، الدرة الجليلة في مناقب الخليفة، تحقيق أحمد عمالك، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1435 هـ/2014م. ص 442.

© المؤلفون. مرخّص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

في حين شقت صالحات أخريات طريقهن في التصوف بمفردهن دون اعتماد إرث العائلة الصوفي، والنماذج على ذلك عديدة أيضا. وما ذكرناه بقصد التمثيل لا الاستقراء.

لكن ما يجب استخلاصه أن التصوف غزا قلوب النساء المغربيات مثلما غزا قلوب الرجال في كل زمن، وفي كل ركن من أركان هذه البلاد، وإقبالهن على التصوف كان بنفس حماس ورغبة الرجال.

المحور الثالث: مظاهر الفاعلية الروحية للمرأة الصوفية المغربية

يمكن التمييز بين مظاهر مرتبطة بالممارسة الروحية، وأخرى لها ارتباط وثيق بالمجتمع، أما ما يتعلق بالجانب الأول، تسوق لنا كتب المناقب براهين عديدة على المكانة العالية التي بلغتها النساء في التصوف يترجمها إيمانهن العميق المتجلي في عبادتهن اليومية وتفانيهن في كثرة الصلاة والصوم والتهجد والحفظ لكتاب الله، وأيضا مسلكهن التقشفي في الطعام والثياب، ورفضهن أكل الطعام من قوم لا ترضين مكسبهم من شدة تحريهن لأكل الحلال. "كما حَلَّتْهُنَّ كتب المناقب بتحليات وألقاب تدل على هذه المكانة الصوفية العالية، مثل الولية الكاملة ذات الحال القوي، والمكاشفات الصريحة، الزاهدة، الورعة الطيبة المطهرة، ذات البركات الواضحة".[1]

وبالتالي فقد تمتعت العديد منهن بنفوذ روحي كبير سواء في حياتهن أو بعد مماتهن؛ حيث ظلت أضرحتهن مقصدا للزيارة من طرف النساء وحتى من طرف الرجال، طلبا لبركتهن؛ وهذا يعني بالدرجة الأولى أنهن لم يكن بمعزل عن محيطهن حيث اشتهرت العديدات منهن بالقيام بالنصح والإرشاد ودعوة الناس إلى الله الذكور منهم والإناث، وإفتائهن في أمورهن الدينية والدنيوية، ما يدل على أن تصوفهن كان تصوفا عالما، فقد شاع عن السيدة "عائشة السكسيوية" السابقة الذكر، أنها كانت فصيحة في أجوبتها ووعظها[2].

وورد في الروض العطر أن السيدة رقية سليلة محمد بن عبد الله معن الفاسي "كانت ناصحة لأقاربها وذوي رحمها زاجرة لنسائهم عما لا يعنيهم، حاملة لهم على الجد والاجتهاد، وكانت النساء تهتدين بكلامها وتتأثر به، ولا يقدرن الخوض في محضرها في اللغو من الكلام". [3]

أما فيما يتعلق بالجانب الاجتماعي، فقد كانت النساء الصوفيات غير بعيدات عن المشاكل اليومية التي يعيشها أبناء جنسهن، وثبتت مشاركتهن في حل بعض مشاكلهم، فقد أشادت المصادر بالعديد من الوليات اللائي اشتهرن بتقديم الصدقات والهبات للمحتاجين والفقراء سواء داخل الزوايا أو بعيدا عنها، وتأدية الدين عن المدينين والمساهمة المادية في بناء الرباطات الصوفية وقبب وأضرحة الصلحاء، وقد عُرفت بعض الوليات الصالحات بكثرة التصدق إلى حد أثار غضب وسخط أزواجهن كما الحال بالنسبة للصالحة "عائشة بنت محمد بن عبد الله معن". [4]

من جهة أخرى، فقد بلغت بعض النساء مبلغا قويا من النفوذ الروحي والاجتماعي، ما أهلهن للنجاح في تهدئة الفتن والنزاعات سواء بين القبائل المتنازعة فيما بينها، أو بين الثائرين والسلطة القائمة، وخلق نوع من التوازن الاجتماعي، وبهذا

---

[1] لطيفة شراس، حضور المرأة في الحقل الصوفي المغربي: مظاهره وصوره. م، س، ص 95.

[2] ابن قنفذ القسنطيني، أنس الفقير وعز الحقير، م، س، ص 131.

[3] ابن عيشون الشراط، الروض العطر الأنفاس بأخبار الصالحين من أهل فاس، تحقيق زهراء النظام، منشورات كلية الآداب بالرباط، الطبعة الأولى، 1997، ص 145.

[4] ابن عيشون الشراط، الروض العطر الأنفاس، م، س، ص 150.

© المؤلفون. مرخّص بموجب (CC BY-NC 4.0) Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

الصدد نذكر نجاح الصالحة "عائشة السكسيوية" في إخضاع أحد الثائرين بمجال نفوذها الروحي وإلزامه بالدخول في طاعة أمير مراكش عامر بن محمد الهنتاتي.[1]

ما تجدر الإشارة إليه، أن مثل هذه الوساطات لا تتم دائما بشكل فعلي ومباشر، بل تتعدى إلى المستوى الرمزي باستعمال هؤلاء النسوة لقوة بركتهن، وهنا يفتح الباب على مصراعيه لتوظيف الكرامة، "فكما هو معلوم، فإن صاحبة البركة الصوفية كما يمكنها جلب الخير للناس، فإنها في نفس الوقت تصبح مصدر ضرر وشر لهم عندما يفرض الموقف الانتقام من جهة مارست الظلم".[2]

والواقع أن النساء العالمات المشهورات بالصلاح والولاية في المغرب، أخذن مكانة مرموقة في مجال الفكر الصوفي المغربي، أما قلة حضورهن في المصادر التاريخية الصوفية وغيرها، فقد يرجع سببه إلى خلفيات المجتمع الإسلامي في تصوره وتمثله للمرأة بشكل عام، هذا التصور الذي انطبع بالسلبية في الغالب، ومع ذلك فالتصوف كان أكثر مجال احترم المرأة وساوى بينها وبين الرجل. فحضور المرأة في مجال التصوف كان متفوقا –على ما يبدو–على حضورها في باقي المجالات، كالفقه مثلا، أو الأدب، أو السياسة وغيرها.

إذن يتبين أن حضور المرأة في التصوف المغربي، وإن بدا محدودا في المصادر من حيث الكم، فقد كان عميقا وفاعلا من حيث الأثر الروحي والاجتماعي. فقد شاركت الصوفيات في التربية الروحية، والتعليم، والإرشاد، كما أسهمن في الإصلاح الاجتماعي، وحل النزاعات، وخدمة الفقراء والمحتاجين، بل بلغ نفوذ بعضهن أن صرن مرجعيات في مناطقهن، يُلجأ إليهن في السلم والحرب. ورغم أن التقاليد التاريخية حالت دون توثيق شامل لتجاربهن، فإن ما وصلنا يكفي لإثبات أن التصوف كان من أكثر الحقول الدينية إنصافا للمرأة وإفساحا للمجال أمامها لتكون فاعلة في صناعة التدين المغربي.

خاتمة:

صفوة القول؛ إن استقراء تجليات الحضور النسائي في رحاب التصوف المغربي يكشف عن تجربة روحية واجتماعية فارقة، استطاعت من خلالها المرأة أن تتجاوز "هوامش" التدوين التاريخي لتصنع لنفسها "متنا" فاعلا في واقع التدين المغربي، و لم يكن هذا الحضور مجرد تأثيث للمشهد الصوفي، بل كان تعبيرا عن حركية إصلاحية وتربوية عميقة، أثبتت من خلالها المرأة أهليتها الكاملة للترقي في مدارج الولاية ومقامات العرفان.

ويمكن إجمال أهم ما خلص إليه هذا البحث في النقاط الآتية:

1. أقر الفكر الصوفي، لا سيما في مترعه الفلسفي، بمبدأ المساواة الروحية، مؤكدا أن المراتب الولائية –بما فيها القطبية– هي أحوال يشترك فيها الرجال والنساء على حد سواء، باعتبار أن "طريق الله" مفتوح أمام السالكين دون ميز جنسي أو عرقي.
2. تتبع البحث تنامي هذه الظاهرة بدءا من الإشارات المبكرة في القرن الخامس الهجري، وصولا إلى أوج نضجها في العصر الموحدي وما تلاه، حيث انتقلت المرأة من العبادة الفردية المنعزلة إلى أدوار مؤسساتية تجسدت في بناء الزوايا وإدارة الفضاءات الروحية الخاصة.

---

[1] ابن قنفذ القسنطيني، أنس الفقير وعز الحقير، م، س، ص 132.

[2] لطيفة شراس، حضور المرأة في الحقل الصوفي المغربي: مظاهره وصوره. م، س، ص 96.

© المؤلفون. مرخّص بموجب (CC BY-NC 4.0) Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

3. تجلت فاعلية المرأة الصوفية في بعدين متكاملين؛ **روحي** تمثل في التربية والإرشاد والقدوة التعبدية، **واجتماعي** رائد برز في الوساطات القبلية، وإخماد الفتن، وكفالة الفقراء، مما جعل من الصوفية سلطة رمزية ومادية أسهمت في حفظ التوازن المجتمعي.

4. سجل البحث مفارقة لافتة بين زخم الفاعلية النسائية في الواقع، وبين "الشح" المعلوماتي والاختزال الذي طبع المتون المناقبية، وهو ما يُعزى إلى ضغوط التمثل السوسيولوجي للمرأة والقيود الثقافية التي هيمنت على فعل التدوين.

وبناء على هذه الخلاصات، تتبدى جملة من التوصيات العلمية:

1. تركيز الدراسات الأكاديمية على الأعلام النسائية المغمورة في الأقاليم المغربية المختلفة، واستنطاق المسكوت عنه في كتب التراجم.

2. ضرورة الانفتاح على علوم الاجتماع والأنثروبولوجيا لفهم أبعاد "البركة النسائية" وتأثيرها في الوجدان الشعبي المغربي.

3. توثيق الروايات الشفهية والمواسم الدينية المرتبطة بالوليات الصالحات (كموسم لالة فاطمة تعلاّت) باعتبارها ذاكرة حية تكمل نقص المصادر المكتوبة.

4. إدماج موضوع المرأة الصوفية ضمن البرامج البحثية والجامعية لما له من قيمة علمية وثقافية.

إنّ إعادة الاعتبار لإسهامات المرأة في الفكر الصوفي المغربي ليست مجرد استعادة تاريخية، بل هي ضرورة معرفية لإعادة بناء قراءة متوازنة ومنصفة لتراثنا الروحي، تُبرز شمولية الإسلام وقدرته على استيعاب طاقات المجتمع بمختلف مكوناته.

© المؤلفون. مرخّص بموجب (CC BY-NC 4.0) Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

المصادر والمراجع:

- ابن الزيات التادلي، التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي، تحقيق أحمد التوفيق، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، ط 2، 1997م.
- ابن عربي (محيي الدين)، الفتوحات المكية، تحقيق عثمان يحيى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1405هـ / 1985م.
- ابن عيشون الشراط، الروض العطر الأنفاس بأخبار الصالحين من أهل فاس، تحقيق زهراء النظام، منشورات كلية الآداب بالرباط، الطبعة الأولى،1997م.
- ابن قنفذ القسنطيني، أنس الفقير وعز الحقير، تحقيق محمد الفاسي وأدولف فور، المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط، 1965م.
- أحمد الوارث، الأولياء ودورهم الاجتماعي والسياسي خلال القرن 16م، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، فاس، 1998م.
- امحمد الخليفتي، الدرة الجليلة في مناقب الخليفة، تحقيق أحمد عمالك، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1435 هـ/2014م.
- حسن العبادي، الصالحات المتبرك بهن في سوس، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، ط 1: 1425هـ-2004م.
- رحال بوبريك، بركة النساء، الدين بصيغة المؤنث، منشورات إفريقيا الشرق، 2010م.
- عبد الخالق العروسي الشرقاوي، المُرقي في بعض مناقب القطب سيدي محمد الشرقي، تحقيق محمد الشرقاوي بن العربي، مركز الإمام الجنيد، 2017م.
- عبد الودود التازي (ت 1247هـ) نزهة الأخيار المرضيين في مناقب العلماء الدلائيين، دار الأمان الرباط،2015م.
- لطيفة شراس، تاريخ التصوف بتادلا: مقاربة وظيفية، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة ابن زهر، أكادير، 2019م.
- لطيفة شراس، حضور المرأة في الحقل الصوفي المغربي، الجمعية المغربية للبحث التاريخي، 2016م.
- محمد المغراوي، تصوف المرأة في العصر الموحدي، مجلة البحث التاريخي، ع2، 2004م.
- محمد المهدي الفاسي، ممتع الأسماع في الجزولي والتباع وما لهما من الأتباع، تحقيق: عبد الحي العمروي وعبد الكريم مراد، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1994م.
- محمد بن أحمد الحضيكي، طبقات الحضيكي، تحقيق: أحمد بومزكو، دار النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط1، 1427هـ-2006م.
- محمد بن عسكر الحسني الشفشاوني، دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر، تحقيق محمد حجي، مطبعة الكرامة، الرباط 1424ه/2004م.
- المكي بن الشيخ محمد المعطى بن الصالح الشرقي، اختصار يتيمة العقود الوسطى في مناقب الشيخ أبي عبد الله محمد المعطى، تقديم وتحقيق، د. رشيد بنعجيبة، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، 1440هـ/ 2020م.

© المؤلفون. مرخّص بموجب (CC BY-NC 4.0) Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/